اسلوب النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة

الدكتور
عبد الرحمن بلّه علي

ومن طريقته الماهرة في غرس الفضائل أنه قد يصدر توجيهات فلا تجد قبولاً ولا استجابة من بعض الناس فلا يناهم بكلمة عتاب ولكنه يعمد إلى ما هو أبلغ من العتاب وأشد وقعاً من العقاب كما حدث عندما قرر بناء مسجده الشريف ، واستنفر الصحابة ليشيدوه بالعون الذاتي فتأفف بعض المترفين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، ترفعوا في غير حق ، وغلى دم الكبرياء في رؤسهم فأبوْا حمل الحجارة وعجن الطين فلما رأى ذلك منهم نزل بنفسه عليه الصلاة والسلام وأسهم مع أصحابه فحمل الطين وكسر الصخر حتى أدمى أصبعه وكان يرتجز قائلاً :

إنْ أنت إلاَّ أصبع دميتِ   وفي سبيل الله ما لقيت

فلما رأى الممتنعون هذا الموقف النبيل من الرسول الاعظم ندموا على تخاذهم ، وأسفوا على تقاعسهم ، ونزلوا الى الميدان يعملون بهمة ونشاط وهم يرتجزون :

— ١ —

نشأ رسول الله ﷺ في بيئة جاهلية وثنية تعبد الأصنام وتئد البنات وتسبي الجوار وتتعلق بالأوهام الضارة . وتأكل الميتة والربا أضعافاً مضاعفة . وتشب فيها نار الحرب لأتفه الأسباب فتأكل الأخضر واليابس . وتنتشر فيها العصبية الهوجاء وكل الأوضاع الجائرة التي تبعدها عن حد الإنسانية الفاضلة وحياة البشر الراقية .

جاء عليه الصلاة والسلام بهدي السماء لهداية الأرض و بمنهج الخالق لاسعاد الخلق واشاعة السلام والأمن والطمأنينة في ربوع العالم الحائر الاتجاه المزعزع الكيان الفاسد العقيدة .. جاء يحمل من التجارب أنفسها . ومن الأساليب أسلمها ومن الوسائل أمضاها وأوصلها . الأمر الذي أعانه على الدعوة إلى الله تعالى في صبر وحكمة وأناة فأزال بعزمه دولة الباطل . وشاد دولة الحق وهذب طبائع البشر . واستلّ سخائم العصبية وأبدل الشرك توحيداً . والخوف أمنا . والتوحش حضارة وتمدنا .

فإذا القوم المختبئون وسط الجبال المنشغلون برعي الشاة والبعير يطلعون إلى أمم الأرض حاملين دعوة الله نجوم هداية وكواكب رشاد فهدوها الصراط المستقيم . وأخرجوها من عبادة العباد إلى عبدة الله الواحد الأحد . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه . وهم لم يدرسوا منهجا تعليميا . ولا تخرجوا في معهد تربوي . إنما تخرجوا في مدرسة النبوة التي جاءت بخوارق العادات وباهر المعجزات وتعلموا أساليب الدعوة وطرق الإرشاد من نبيهم الكريم وآيات كتابهم الحكيم مع ما امتازوا به من سلامة الفطرة ورجاحة العقول وأصالة المعدن وأنوار الفطانة .

— ٢ —

كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على هداية الناس حرصاً أقضّ مضجعه .

وأسال مدمعه ، وأسهر ليله ، حتى كادت نفسه تذهب عليهم حسرات حين رأى إدبارهم عن القرآن وهجرهم له ، ومقتهم للإيمان ونفورهم عنه مع وضوح الأدلة وسطوع البراهين . فنزلت آيات الله تعالى تسلّي عنه ، وتخفف ما به .. « **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إن لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً** »[1] « **فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** »[2] « **إِنَّمَا أنتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ** »[3] « **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ** »[1]

ورسول مثله لا بد أن يتحايل على هدايتهم ، ويتلطَّف في دعوتهم ، فكان يشخِّص الداء قبل إعطاء الدواء ، ويرسم الخطة قبل بدء الهجوم ، ويحدد الهدف قبل إرسال السهم وإذا أخفقت وسيلة التمس غيرها ، وإذا استعصت ناحية جاء من أخرى ، حتى يخلصهم مما هم فيه ، ويحملهم إلى باب الله حملا ، فهو لا يرجع دون الوصول إلى غايته وبلوغ طلبته مهما لقي من عنت ومشقة وطول انتظار « **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ** »[2] خبير بما يؤثر في النفوس ، ويمتلك أعنتها ، ويوجهها إلى الخير الذي يريده لها ، السعادة التي يدعوها إليها .

بدأ ﷺ بأقرب الناس إليه صلة ، وأمسهم به رحما ، لأن العشيرة مظنة النصرة والتأييد والحماية ، ولأنهم أولى الناس بالنصح والإرشاد ، ولأن دعوة الآخرين من بعدهم أهون وأيسر . من أجل ذلك قال الله له في محكم تنزيله « (**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ**

---

(١) الكهف ٦ .

(٢) فاطر ٨ .

(٣) الغاشية ٢١ – ٢٢ .

(١) المائدة ٩٩ .

(٢) التوبة ١٢٧ .

ٱلْأَقْرَبِينَ)»[٣] فكان عليه الصلاة والسلام حريصاً على هدايتهم، مواصلاً لدعوتهم، وعلى الرغم من أن بعض عشيرته أحجم عن الدعوةِ إلاَّ أنه ظل يحميه، ويذود عنه كما فعل عمه أبو طالب الذي قال له:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أو سَّد في التراب دفينا

وكعمّه العباس رضي الله عنه الذي عارض الدعوة، ووقف في معارضته مع المشركين الذين يتربصون بها، ويكيدون لها إلاَّ أنه كان ذراعاً واقياً لابن أخيه من الكفار. بل كان في الظاهر مع المشركين، وفي الباطن مع رسول الله والمؤمنين حتى جهر بإسلامه قبيل الفتح.

ونحن نعلم أنه بدأ بزوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فوجد فيها نعم المعين والنصير إذ وقفت خلفه تشد من ازره، وتعينه على أمره في وقت كذبه الناس وحاربوا دعوته، فكان ما بذلته من تأييدها المعنوي والمادي زاداً له في مسيرته المضنية.

كما استغلَّ صداقته القديمة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، فدعاه إلى الإسلام فلم يتريث ولم يتردد بل بادر ودخل في دين الله. ثم أصبح مشيره في الشدة، ورفيقه في السفر، ومؤنسه في الوحدة، وقد صحبه في هجرته الميمونة وليس معهما ثالث إلاَّ الله جل جلاله، وكانت له من المواقف الخالدة ما بقي معالم على مرّ الزمان.

وعمد أبو بكر هو الآخر إلى أصدقائه مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقّاص فدعاهم إلى الإسلام فلبُّوا دعوته، وانتظموا في مقدمة المسيرة المباركة فازداد الإسلام بهم قوة، والمسلمون عدداً

(٣) الشعراء ٢١٤.

وعُدَّة .

وكان كل ذلك يجري في سرية ، وقريش لا تنكر منه ولا تهتم به ، حتى إذا علا أمر الإسلام ، وبدأ الناس يقبلون عليه ويؤمنون به ، ويدعون إليه وارتفع صوت النبي بسب آلهة قريش وتسفيه أحلامهم وعيب دينهم ، حينئذ شمروا له عن ساق العداوة ، وأصبحوا يحفرون تحت قدميه ، ويكيدون له في الخفاء .

واستمرت الفترة السرية ثلاث سنوات جرى فيها استقطاب الأفراد وتربيتهم وصقلهم ، وتمكين الإيمان في نفوسهم ليكونوا أساساً متيناً يقوم عليه بناء الدعوة الجديدة . فلما أُمِرَ الرسول بإظهار الإسلام إظهاراً لا خفاء معه خرج هذا الرعيل الأول بالله ملتفاً حول رسوله ، يدعو إلى الله على بصيرة ثابتاً محتسباً لم تنل منه الخطوب ، ولم تنحن له هامة ، ولم يرجع قيد أنملة رغم ضراوة الهجمة الشركية عليه .

هكذا ، ينبغي أن يكون العمل الإسلامي محاطاً بالحذر في مثل جوٍّ كريهٍ ملغَّمٍ بالخطر ، وأن يجريَ إعداد الدعاة في سرية تامة فالمرحلة الجنينية هذه لا بد منها كالبذر لا يرجى نماؤه وإثماره إلاَّ إذا دفن في الأرض .

— ٣ —

ومن أسلوبه المثمر التحرك والتنقل بالدعوة والاتصال المباشر بالناس ، يشرح لهم أصول دعوته ومضمون رسالته ، ويدعوهم إلى الإيمان بها والعمل لها والذود عنها . كان يغتنم موسم الحج وحضور الناس فيه فيتصل بهم ، ويتنقل بينهم شارحاً داعياً .

ويحدثنا التاريخ أنه خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الإيمان بالله وحماية رسوله ودينه بعد أن افتقد ذلك بين ظهراني مكة فلم يدَع احداً من أشرافهم إلاَّ جاءه وكلمه

ودعاه إلى الإسلام ، ولكنهم لم يستجيبوا لله وللرسول ، بل طلبوا منه الخروج من بلدهم وأغرواْ به سفهاءهم ، فكانوا يسبونه إذا أقبل عليهم ، ويرمونه بالحجارة إذا أدبر عنهم ، حتى ادمواْ قدميه الشريفتين ، وزيد بن حارثة رضي الله عنه يحميه بنفسه . فلما لم يجد عندهم بغيته انصرف عنهم – راجعا إلى مكة ، وفي مرجعه ذاك دعا بالدعاء المشهور : « **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني . أم إلى عدوّ ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أُبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك أو أن ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك** » فأرسل الله تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة والأخشبان هما جبلاها التي تقع بينهما **فقال عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل أستأني بهم ، واني لأرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً » وَكَأَنْ قَدْ** .

ولم يتمكن هو وزيد من دخول مكة . بل بقي أياماً خارجها عند (نخلة) لأنها كانت قد أهدرت دمه إنْ هو دخلها فأرسل رجلاً من خزاعةَ إلى المطعم بن عدي أدخل في جوارك ؟ فقال : نعم ، ودعا بنيه وقومه فقال : ألبسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت ، فإني قد أجَرت محمدا فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى :

يا معشر قريش اني قد أجرت محمداً فلا يُهجْه أحد منكم . فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته[1] .

---

(١) زاد المعاد ابن القيم ، ط الحلبي جـ ٢ ص ٥٢ .

لم يمنع رسول الله ﷺ من التحرك ودعوة الناس إلى دين الحق بطش الباطل بالحق وتنكيل الشرك بالتوحيد فهو لا يرهب سلطاناً ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، وفي سبيل الله ما لقي وفي سبيل الله ما يلقى . إن إيمانه بالله ، وتوكله عليه وقناعته بما ينادي به ، ويدعو إليه ، واطمئنانه إلى سلامة طريقه كل ذلك اقام فوق رأسه مظلة واقية استظل بها ، وتحرك تحتها . ولقد أثمر هذا التحرك المبارك بيعة العقبة الثانية وهي بيعة حربية ، تعهد فيها الأوس والخزرج بحماية رسول الله والذود عن دعوته ، والجهاد تحت رايته إذا هو قدم إليهم في المدينة ، وأعطوه على ذلك ميثاقهم المؤكد فانتقلت الدعوة من مكة حيث البطش والتنكيل بها وبرجالها إلى المدينة حيث التأييد والحماية لها ولرجالها . وهناك أشرقت شمس التاريخ . وأنشأ رسول الله دولة قوية وأعدّ جنوداً أوفياء . وكوّن مجتمعاً كريماً فاضلاً . ومن أبرز نتائج الهجرة فتح الفتوح .. فتح مكة . الذي ابتهج به أهل الملأ الأعلى . وأشرقت الأرض بنور ربها . ودخل الناس في دين الله أفواجاً ..

ولولا خروجه فارا بدينه مختفياً من أعدائه في جنح الليل لما دخل مكة فاتحاً منتصراً في وضح النهار . ولولا اختفاؤه في جبل ثور متوارياً ، لما دخل الكعبة البيت الحرام مصلياً وهكذا إذا أراد الله شيئاً هيأ له الأسباب ، وفتح له النوافذ والأبواب .

— ٤ —

ولم يكن عليه الصلاة والسلام يغمض عينيه ، ويلقي بنفسه اعتماداً على الصدف والحظوظ . إنما هو التخطيط المحكم والتنظيم الدقيق والأخذ بالأسباب عملاً بسنن الله في الكون ، مع التوكل على الله والتسليم المطلق والرضا الكامل . وفي حدث الهجرة نجد النموذج الحيّ ، لذلك فهو يأمر ابن عمه عليا أن ينام على فراشه ليلة تسوَّر سبعون فتى بيته ينتظرون ساعة الصفر ليميلوا عليه ميلة رجل واحد فيشتركوا جميعاً في قتله .. أمره أن ينام على فراشه ذاك ويتسجّى ببردته حتى يُعمِّي على المشركين أمْرهم

ثم أحسن التخلص وذهب إلى أبي بكر حيث كل شيء قد أعِدّ وهيّيء للهجرة الى المدينة .

وقد مكثا ثلاثة أيام في جبل ثور . وفي هذه الأثناء كان عبدالله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم يسمع ما يأتمرون به ، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر . وكان عبدالله بن فهيرة يرعى في رعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما غنمَ أبي بكر فاحتلبا وذبحا فإذا عبدالله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يُقفِّي عليه .

وما كادا يمضيان ثلاثة أيام ، ويسكن عنهما الناس وينقطع الطلب حتى جاءهما صاحبهما عبدالله بن أريقط الذي استأجراه ببعيرهما وبعير له ، وأتتهما اسماء بنت أبي بكر بسفرتهما .. [1] إنها شجاعة يقيدها الحذر ، وحكمة تصقلها التجربة ، وحركة تسوِّرها الحيطة . وانها لمسيرة مباركة يقودها سيد العالمين وتكلؤها رعاية الله رب العالمين .

— ٥ —

من أسلوبه البالغ الأثر انه كان يأخذ الناس بالقدوة الحسنة والأسوة الكريمة وذلك أمضى سلاح وأنجع أسلوب لبث القيم ودعوة الناس اليها وترغيبهم فيها واقناعهم بها . ومن كمال عناية الله به ورعايته له أن نشأ منذ طفولته – مجبولاً على مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، محفوظاً من شرور الجاهلية وسوْآتها عزوفاً عن كل ما يخدش الكرامة ويجرح المروءة .. نشأ محمودا في السماء والأرض ، محمودا عند الأنس والجن ، محمودا في قوله وفعله حتى لقد اشتهر بينهم بالصادق الأمين فكان محل ثقتهم ومستودع أماناتهم .

(١) السيرة النبوية ، ابن هشام ، ط ٢ ، ق ١ ، ص ٤٨٦ .

وقد ارتضوه حكما لهم في خصومتهم المشهورة عند رفع الحجر الأسود في مكانه حين جددوا بناء الكعبة وكانت كل قبيلة تريد أن تفوز بهذا الشرف دون سواها ، وتطور النزاع حتى كاد ينتهي إلى حرب تُسيل الدماء ، وتُزهق الأرواح وتُقطِّع الأرحام ، فما أنقذهم إلاَّ محمد بن عبدالله الذي قبلوه حكما لهم وقاضياً بينهم مع توافر رجالاتهم الذين عرفوا برجاحة الأحلام وعظم الدهاء ، وبُعد النظر ، مع ذلك نزلوا على حكمه لما لَمسوه فيه من خلق عظيم وتفكير سليم وتدبير حسن عميق . وكان ذلك كله إعدادا من الله تعالى لرسوله وإنماء لملكته وحفظا لفطرته ليبلغ عنه ، ويدعو الناس إليه فيستجيبوا له ، ويعقلوا عنه .

فلما اختاره الله رسولاً مبشِّراً ونذيراً وداعياً إليه وسراجاً منيراً أصبحت تلك الصفات والمكارم والفضائل أكمل وأبهى وأروع ما تكون فيه فكان محط الأنظار ومكان الإعجاب ومهوى الأفئدة . ولما كان القرآن هو المنهج الرباني الذي تضمن أسس التربية القويمة وقواعد الاجتماع المتينة فقد كان عليه الصلاة والسلام متخلقاً بأخلاق القرآن متأدباً بآدابه وقافاً عند حدوده .. معظماً لشعائره .. تاليا لآياته متعمقاً في معانيه .. كان سلوكه تفسيراً حيا للقرآن ، وترجمة صادقة لآياته .. كان القرآن يظهر جلياً في فعله كما هو في قوله ويبدو واضحاً في معاملته كما هو في مخاطبته .

فلا عجب إن تجمعت فيه مكارم الأخلاق وأشتات الفضائل مما لم يتيسر لبشر غيره . وكما أن معاني القرآن غير متناهية لا يحاط بها ولا يسبر غورها فكذلك أخلاق رسول الله ﷺ لا يستطيع أن يحصيها ويرصدها مهما أوتي من قوة البيان وفصاحة اللسان ، وهذا معنى قول السيدة عائشة رضي الله عنها – حين سئلت عن أخلاقه فقالت : كان خلقه القرآن .

والواقع أن الفكرة إذا تمثَّلت في فرد أو مجموعة فمن اليسير أن نقنع بها الآخرين

أكثر مما لو شرحتها لهم في مجلدات فالتطبيق العملي أوقع في النفس ، وأدعى للإقناع من الكلام النظري ، ورؤية المبادىء مطبقة في واقع معاش أهدى للعقل واجذب للقلب من قراءتها مسطورة في كتاب . ولقد كان الصحابة الأجلاء لا يتجاوزون العشر آيات حتى يطبقوها ويترجموها سلوكاً وواقعا ثم ينتقلون إلى غيرها فكأن المطلوب هو العمل والعلم معاً لا العلم وحده .. المطلوب هو أن يظهر جمال الدين معاملة وسلوكا قبل أن يظهر معرفة وإلماما . ليكون البيان بالعمل وليعلم الناس أنك تدعوهم إلى منهج عملي لا إلى كلام نظري في عالم الخيال .

والنبي الكريم قدوة لكل الناس على اختلاف أجناسهم وتفاوت أعمارهم وتنوع أعمالهم — الحاكم .. الداعية .. المحارب .. السياسي .. التاجر .. العامل .. المعلم .. الأب .. الزوج .. الـ .. في ما مضى وما هو آت من الزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. وهذه هي الحكمة في أن الله تعالى شبهه بالسراج فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً » (١) .

لأن الإنسان لا يجد صعوبة في أن يشعل سراجه من سراجٍ آخر ، ولو أن أهل الأرض قاطبة أولهم وآخرهم .. إنسهم وجِنّهم أشعلوا فوانيسهم من سراج واحد لما نقص من ضوئه شيء .

« إن شخصية الرسول ﷺ ليست آية عصر وجيل ولا أمة ولا مذهب ولا بيئة .. إنها آية كونية للناس كافة وللأجيال كافة .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (٢) » « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً

---

(١) الأحزاب ٤٥ — ٤٧ .
(٢) الأنبياء ١٠٧ .

وَنَذِيراً » .

فهو للعالمين كلهم وللناس كافة في جميع الأزمان من لدن مبعثه وفي جميع الأجيال وفي كل الأرض .. آية باقية لا تذهب ، ولا تنقص ولا تزول . وإنه لحي اليوم في هذه اللحظة كما كان حيا في شبه الجزيرة العربية قبل ألف وثلاثمائة عام لم ينقص شيء ، ولم يتغير شيء كما لا تتغير الشمس ، ولا تتغير سنة الكون ، ولا تفنى - الطاقات ، وإن سيرته حين تقرأ لتلمس النفس وتهزها من قواعدها كما لا يهزها شيء ، وتتغلغل فيها إلى الأعماق .. »[1] .

— ٦ —

ومن أساليبه الرائعة تهيئة الجو وإثارة الشوق قبل إلقاء الحديث والدخول في الموضوع حتى تفتح القلوب أبوابها لاستقباله استقبالاً كريماً فيلجها بسهولة ، ويحدث أثره المطلوب لأن القلوب كالبيوت لا يستحسن دخولها إلاَّ بعد استئناس واستئذان .

من ذلك أنه لما أراد عليه الصلاة والسلام دعوة قريش إلى الإسلام صَعِدَ جبل أبي قبيس والمشركون في أنديتهم متحلقون حول الكعبة فناداهم بطنا بطنا فاجتمعوا لديه فكان هو في أعلى الجبل وهم في أسفله ، فقال لهم : **أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً قط . فقال لهم في عبارات قلة ، واضحة الشواهد والأدلة ، تصدر من طبع مهذب وخلق أصيل ، وفطرة أصفى من الماء الزلال :**

« ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذي لا اله إلاَّ هو إني لرسول الله إليكم خاصة والى الناس

(١) محمد قطب منهج التربية الاسلامية ط ٢ ص ٢٢٦ .

كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءًا ، وانها للجنة أبداً أو النار أبدا ، وإنكم لأول من أنذر بين يدي عذاب شديد » .

ومن ذلك أيضاً أنه كان مرة بين أصحابه فأخذ عودا وجعل يخط به على الأرض .. خطّ خطا عديلاً ثم خط عن يمينه خطوطا وعن شماله مثل ذلك . أما الصحابة فقد التفتوا لذلك وجعلوا ينظرون في اهتمام فتلى قول الله تعالى :

« **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوْا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** »(١) مشيراً إلى أن الخط العديل هو صراط الله المستقيم ودينه القويم ، وأن الخطوط التي عن يمين وشمال هي السبل التي تفرق الناس وتضل مسعاهم .

وفي مرة كان يمشي ومعه سلمان الفارسي ، ولما جاءا تحت شجرة أخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحاتت أوراقه وسلمان ينظر ولكنه لم يسأله لِمَ فعل ؟ فلما لم يسأله بادره الرسول عليه الصلاة والسلام مبيناً له أن المؤمن إذا توضأ فأحسن الوضوء تحاتت سيئاته كما تحاتت أوراق هذا الغصن أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

ولا شك أن مثل هذه المقدمة تلفت النظر وتهيّيءُ النفس وتنبه القلب ، وتجعل المخاطب في شوق شديد لمعرفة الموضوع ؛ الأمر الذي يعينه على فهمه وقبوله وهضمه .

ونأخذ مما تقدم أن على الداعية – وهو يعلم الناس ويرشدهم – أن يستفيد من البيئة التي تحيط به فما تجود به يستطيع الحصول على ما يحتاج إليه لشرح المعنى

---

(١) الأنعام ١٥٢ .

وتوضيح الفكرة كالسبورات والملصقات والخرائط وربما أفلام لها بالموضوع صلة ..

— ٧ —

إن رسول الله ﷺ لم يدخل معهداً تربوياً ، ولم يدرس منهجاً تعليمياً . إنما رباه رب السموات والأرض ، وعلمه عالم الغيب والشهادة «**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**»[1] فاستطاع بأسلوبه الممتاز وطريقته المتفردة وروحه العالية وفهمه المشرق وعزمه القوي أن يغرس الفضائل في النفوس ، ويوصّل القيم في القلوب بوسائل مختلفة وأساليب متنوعة .

من ذلك أنه قد يرى الشيء فلا يعجبه فيتصرف تصرفاً يلفت به النظر ، ويشد إليه الانتباه فيلقي عندئذ ما يريد من تعليمات فإذا بها نازلة في أعماق النفوس بالغة قرارة اليقين وكمال القبول كما حدث عندما أتى بيت فاطمة رضي الله عنها ليزورها ثم عدل فلم يدخل عليها فاهتمت لهذا الأمر فبعثت علياً يسأل الرسول عن سبب عدوله عن زيارتها فأجابه الرسول ﷺ : **إني رأيت على بابها ستراً موشياً فعاد إلى فاطمة فأخبرها الخبر فقالت فاطمة : ليأمرني فيه بما شاء . فقال عليه الصلاة والسلام : ترسلي به إلى فلان أهل بيت بهم حاجة**»[1] .

وليس معنى هذا أن رسول الله لا يحب الجمال ولا يروق له – المنظر الحسن لا ولكن لا كان جمال ولا منظر حسن وهناك فقراء جائعون وأطفال ضائعون .. بهذا الأسلوب الفذّ يعلم النبي أهل بيته – الذي أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً – أن يكونوا نماذج حية في العدل الاجتماعي والتكافل الإنساني والإحساس ببؤس

---

(١) النساء ، ١١٣ .

(١) رواه البخاري .

الآخرين فلا يتمتعون بالأشياء الكمالية وهناك أناس لا يجدون المستلزمات الضرورية .

— ٨ —

ومن أسلوبه النافذ التجاوه إلى الإيحاء العملي لأنه أقوى أثراً وأنفذ مدخلاً من الإيحاء النظري ، والناس إنما يتأثرون بما يشاهدون أكثر من تأثرهم بما يسمعون ، جاء في صحيح مسلم قال : **حدثنا إياس بن مسلمة عن أبيه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا (أي دوابنا) فأمر نبي الله ﷺ** فجمعنا مزاودنا (أي ما نحمل فيه الزاد) فبسطنا له نطعا (أي بساط من جلد) فاجتمع زاد القوم على النطع قال فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ثم حشونا جروبنا . وهكذا وبالدلالة الفعلية يربي النبي أصحابه على الإيثار وحب الغير وبذل ما زاد عن الحاجة أو كان قدْرَها أو أقلَّ منها في الأوقات التي يتعرض فيها الناس لنقص المؤن وشح الأزواد يجب عليهم أن يجمعوا ما عندهم في صعيد واحد ويقسموه بينهم بالسوية حتى يكون المجتمع الإسلامي متراحما متكافلاً في العسر واليسر والشدة والرخاء والضيق والفرج فلا يوجد فيه الفقير الجائع أو السائل الذليل أو الضعيف المهضوم ، فمن كل حسب يسره إلى كل حسب عسره .

— ٩ —

ومن طريقته الماهرة في غرس الفضائل أنه قد يصدر توجيهات فلا تجد قبولاً ولا استجابة من بعض الناس فلا ينالهم بكلمة عتاب ولكنه يعمد إلى ما هو أبلغ من العتاب وأشد وقعا من العقاب كما حدث عندما قرر بناء مسجده الشريف ، واستنفر الصحابة ليشيدوه بالعون الذاتي فتأفف بعض المترفين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، ترفعوا في غير حق ، وغلى دم الكبرياء في رؤسهم فأبوْا حمل الحجارة وعجن الطين فلما رأى ذلك منهم نزل بنفسه عليه الصلاة والسلام وأسهم مع

أصحابه فحمل الطين وكسر الصخر حتى أدمى أصبعه وكان يرتجز قائلاً :

إنْ أنت إلاَّ أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

فلما رأى الممتنعون هذا الموقف النبيل من الرسول الأعظم ندموا على تخاذلهم ، وأسفوا على تقاعسهم ، ونزلوا إلى الميدان يعملون بهمة ونشاط وهم يرتجزون :

لئن قعَدنا والنبيُّ يعمل لذاك منَّا العمل المضلل

وفي هذا تربية للقادة كما هو تربية للقاعدة .. القادة الذين يُستدعون لوضع الحجر الأساسي لمصنع أو مصحة أو مؤسسة فيأتون في بدلهم الأنيقة فيضعونه بأطراف أصابعهم ثم ينفضون الغبار في تأفف ولا يعودون بعد ذلك . إنما يظلون يسألون عمَّا تمَّ وهم في مكاتبهم المكيفة الهواء الوثيرة المقاعد .

وإن كان عليه الصلاة والسلام قد استعمل في هذا المثال الطريقة الإيجابية بالفعل فإنه أحياناً يستعمل الطريقة السلبية بالترك فتكون في أثرها ومفعولها كالطريقة الإيجابية من ذلك **ما جاء في الحديث الصحيح من أنه لم يعب طعاماً قط ان أعجبه أكل منه وإلاَّ كفَّ عن الأكل** . وهذا أسلوب عجيب في التربية لأن أهل البيت حينئذ يفطنون إلى الخلل فيعالجونه من غير احراج لموقفهم أو جرح لشعورهم ، وشبيه بهذا ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه من أنه خدم النبي ﷺ عشر سنين فما قال له في شيء تركه لم تركته هكذا ، ولا في شيء فعله لم فعلته هكذا ؟

— ١٠ —

ومن أسلوبه التربوي الالتجاء إلى التلميح دون التصريح والاكتفاء بالإشارة دون العبارة ، وهو أسلوب عفٌّ كريم يحفظ كرامة الشخص المعنى ويبقى على مكانته بين

الناس وفي الوقت نفسه يؤدي غرضه ويحدث في النفوس أثره . جاء في الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ بعث والياً ليجمع صدقات قبيلة «الأزد» فلما جاء إلى الرسول أمسك بعض ما معه وقال : هذا لكم وهذا لي هدية ، فغضب النبي وقال :

ألا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً « ثم قام فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : **أما بعد فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله فيأتي فيقول : هذا مالكم وهذا هدية أهديت إليَّ . أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته ؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلاَّ لقي الله يحمله يوم القيامة فليأتين أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر** : ثم رفع يديه حتى رئي بياض أبطيه ثم قال : «**اللهم هل بلغت**» .

فهذا رجل أُسْنِدَ إليه جمع الزكاة فاستغل هذا المنصب حين قبل الهدية ، وما هي بهدية ، إنما هي رشوة ، لأنه لم يعطَها إلاَّ اتقاء لشره أو استدراراً لعطفه . فلما علم رسول الله بذلك بادر كعادته بتوضيح الحقيقة وتقرير المبدأ السليم الذي يصون أموال الأمة من الضياع ، ويسد الطريق أمام الولاة الجشعين الذين يستمرئون الشَّرَه والإثراء على حساب الناس ، ويضع القاعدة المتينة لمحاسبتهم صوناً لأموال الشعب وتطهيراً للمجتمع من الرشوة وتحريراً له من شهوة التسلط وغول النفوذ .

ورد كل هذا دونما تشهير بالرجل صاحب القصة . وهذا مستوى إنساني رفيع وأسلوب تربوي كريم وخلق نبوي عظيم .

وبعد :

فليس هذا بحثاً استقصائياً أو دراسة شمولية لأساليب النبي في الدعوة والتربية فذلك شأو لا يطال وشرف لا ينال لكائن من كان ، وإنما هي إشارة أحببت أن

ألفت بها النظر إلى هذا الميدان الفسيح لتتزاحم عليه مناكب الدعاة . وصلى الله على صفوته من خلقه وأمينه على وحيه محمد ابن عبدالله صلاة باقية ما بقي الزمان وسلم كذلك تسليماً .

المراجـع :

١ ــ **تذكرة الدعاة** – البهي الخولي

٢ ــ **جند الله ثقافة وأخلاقاً** – سعيد حوي

٣ ــ **الحلال والحرام** – د. يوسف القرضاوي

٤ ــ **زاد المعاد** – ابن القيم

٥ ــ **السيرة النبوية** – ابن هشام

٦ ــ **محمد ــ نظرة جديدة** – لفيف من العلماء

٧ ــ **مشكلات الدعوة والداعية** – فتحي يكن

٨ ــ **المنطلق** – محمد أحمد الراشد

٩ ــ **منهج التربية الإسلامية** – محمد قطب